

روح الطموح في المتني

منشأ الطموح

طردُ اطم او دفع الالم هو كما قال ابن حزم « مذهب اتفقت الامم كلها عليه فلا يعتمدون بسعيهم امراً سواه » لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيتها من طريق الشعور بالحاجة او بما يؤثر في ميولها من ورائة فتحاول طرد اطم بدفع ما يحول دونها . فالناشئ في سلف عزيز وخلف اعزة تنزع نفسه الى العز ، والنايت في منبت شهواني او سلف أليف الشهوات يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه المجرمانها . وما طلب المال طالبه الا لطردهم الفقراء ، ولا رغب في الحياة راغبها الا لدفع هم الموت ، ولا ابتغى الصيت مبتغيه الا لطردهم الخمول ، ولا طلب المعالي من الامور الا من يكره ان يستعلي عليه عال .

الانسان روح واشد ما تكره الروح ان يستعلي عليها مستعل او يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذي للقوة القاهرة اذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة همما مملوءة كرباً ، فاذا طال عليها الأمد ، وهي خاضعة ، الفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالفة يخف ألمها وينفرج كربها .

عزة النفس العربية

العرب امة نشأت على عزة النفس والاباء فرأت انها اعز الامم جاراً وامنعهم ذماراً واشرفهم محتداً واذكاهم عنصراً ، ثم تجاوزت الحد فرأت أن كل من عدا العرب اعاجم لا يدانون العرب منزلة ولا يوازنونهم كفاءة .

فليس عجباً والحال هذه ان يأنف النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على قري
الطف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها اليه فيقتله كسرى تحت ارجل الفيلة
انتقاماً من انفته . ولا ان ينتقم له العرب بوقعة ذي قار لانه ذهب شهيد الكبرياء
العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي .

وليس غريباً ان تمتص ليلي بنت لكيز بعفتها ولا ترضى ان تكون في نساء كسرى
لانها عربية وهو اعجمي . وهي بنت الصحراء او ربيعة البوادي واليفة المضارب ، وهو
صاحب الدور المشيدة والصروح المردة والملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا
كاه ليس بكفء لها لانها عربية وهو اعجمي .

هذه هي كبرياء العرب وطمرح العرب ، فلا عجب اذا ان نرى عربياً فحاً كابي
الطيب ارتفع بذكائه وعلا اقرانه ببيان ساحر وقلب جري ، وعزم ثاقب وعلم جم تهب
عليه ربح الطموح وتطغى فيه روح التعاضم وهو العربي منبتاً ونسباً وادباً .

المتنبى عربى صحيح النسب

ضربت بعرق المتنبى دوحه يمان ، فهو من حيث ابوه جعفي من سعد العشيرة من
مدحج ، وهو من حيث امه همداني وهمدان واسطة عقد العرب اليمانيين مجدداً وشجاعاً
وصيد العرب بعد النبي المختار بقول فيهم :

ناديت همدان والابواب مغلقة ومثل همدان سنوا فتحة الباب
كأذندواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب

بقول ابوالحسن ابن ام شيبان : ان ابا الطيب كان جعنياً صحيح النسب ، ويقول
ابوالحسن محمد بن يحيى العلوي الزبيدي : ان والد المتنبى كان يقول انه من جعفي ، ثم قال
وكانت جدة المتنبى همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها وكانت جارتنا ، و ابو الطيب
يقول على قلة اعتداده بمجد الآباء :

ومحدي يدل بني خندف على ان كل كريم يمانى

ويقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما
 فيدعي مثل هذه الكبيرة وينخر هذا النخر ويبالغ في أنفة قومه هذه المبالغة فلا
 بد إذا لهذه الدعوى من اصل في شرف آباءه . أما ان لا يكون لدعواه هذه أساس تبني
 عليه هذه المبالغة فإني أراه غير مقبول في العادة ، والا فلم تر كفا له حساره والناعون عليه
 وما أكثرهم حوله وما احصاهم لكل دقيقة وجليلة عليه ! واذا لم يكن له اصل من شرف
 آباءه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكتون عنه من هذه الناحية
 من فخره بعد ان طلبوا وزمروا في تنقصهم له ، وكل ما قالوه في نسبه ان اياه ، بلقب
 بعيدان كان خامل الذكراً فقيراً ومهما اشتد الفقر لا يكون منرباً بالاحساب والانساب ،
 وخمول الذكراً مهما استحكماً لا يكون ميزاتاً لمجد الآباء ، وشرف العنصر ؛ واما ما جاء به
 بعض الخرفين عنه من انه انما انتخر بنفسه دون آباءه فلكي يسرّ وهناً في نسبه . فهو
 دليل لا يصح الركون اليه واذا كان المثني يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ، وبنفسي نخرت لا يجوددي
 فانما سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيل العامري وهو من علمت مقامه في
 العرب حسباً ونسباً يقول :

وما سودتني عامر عن كلاله ، ابي الله ان اسمي بأُم أو اب
 اذا كانت نفس عصام سودت عصاما فليس معناه ان آباءه لم يكونوا ذوي سودد
 وسيادة بل هو على حد قول الفضل الهمامي الهاشمي الذي يقول :

لسنا وان احسابنا كرمت ، يوما على الاحساب تشكل
 نبني كما كانت اوائلنا ، تبني ونفعل مثلما فعلوا
 على أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يثوم من قوله بل شرفوا بي بقوله بعده :
 وبهم فخر كل من نطق الضاد ، وعود الجاني وغوث الطربس
 وليس عجيباً من ذي كبرياء وطموح مفرط كالمثني أن يقصد المعنى الذي اراده
 الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذُرَى شرف ، كما علت برسول الله عدنان
 إن المثني الكبير النفس المتجاوز حد التعاضم بمثل قوله :

فدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوقني ولا احد مثلي
والذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق محنقر في همتي كشعرة في مفريقي

بأبي أن يستند في فخره الى مجد عظامي ، وان كان شامخاً باذخاً ، ويريد أن يحقق بنفسه القاعدة المشهورة « المرء بجده لا بجده » على أن خمول ذكر والده وعدم مساعدة الزمان له على أن ينال مقاماً يعرف به لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يتمتع نفسه بولده بما حرمت نفسه منه من علم وثقافة ، فسافر به الى الشام حيث الهواء العذبي والماء الروي ، والادب ناشر أعلامه ، وبجالسه حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث منبت الطائين الذين انتهت اليهما زعامة الشعراء ، حيث موطن العتابي والنعمري والسلمي وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام ملوكاً وامراء من آل حمدان وبني ورقاء ، وهم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالجد والكرم ، والجمع بين السيف والقلم » ، حيث ملتقى أئمة اللغة ونحاريها وفحول العربية وأساطينها أمثال ابن خالويه والفارسي .

يقول الثعالبي : سافر به أبوه الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق بالحسنى ، وضامن النجح فيه حتى ترعرع وشعر وبرع «

الطنبي بعمر صوت أبيه

ما زال هم الظموح يعتلج في صدر أبي الطيب وبقدر وهو منصرف الى مغالبة العوائق ، فعكف على التحصيل ، وكان كثيراً ما بغشى الوراقين يتزبد من دفاترهم علماً ، ويمهد نفسه في المطالعة واستظهار ما يروقه ، وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين ، وكان هذا في أول صباه من أنه حفظ كتاباً للصمعي يدخل في ثلاثين ورقة بنظره فيه نظرة واحدة ، فروى أيام العرب وتعمق في درس اللغة فكنص شواردها وتأنس أو أوبدها حتى بلغ من ذلك الغاية ، وحسبك

شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فعلى واجابه أبو الطيب بلا توقف
لنها حجلو وخرني . بقول الفارسي انه قضى ثلاث ليال يراجع كتب اللغة فلم يجد
لها ثالثاً .

دعوته الى نفسه وجرارها

ابو الطيب عربي خالص العروبة ، تفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيهم من دولة
ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها الى امتلاك زمام الامر والنهي ، هذا بهيمته وجهوده
وذلك بعصبيته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته . فليس غريباً أن تزداد روح الطموح فيه
نشاطا وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر هممة وأعز نفساً ، فكيف لا يدفع هم
استغلالهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه .

وكأنه رأى أن أعلى مقام لتسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره لحاجتها الى بيعة
شاملة او ولاية عهد مؤبدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة قامت دعائمها ، والنبوة
تبتدى بالدعاية الفردية ثم تنتشر فيكثير حولها الانصار فتشدد فيعلو امرها . رأى
ذلك وعنده من قوة الجنان وسحر البيان وفصاحة اللسان . ينجلب به ألباب الاعراب وكانت
قد فشت في ذلك العصر بدع المتنبئين ودعوات الحلول وعليها قتل ابن السلمغاني والحلاج
وغيرهم وفشت دعوى القرامطة المبنية على مثل هذا الاساس .

فتخيل ان الزمان بوأتمه حيث كانت الممالك فوضى بعد ان ضعفت الخلافة في بغداد
واصبح كل امير مستقلاً بعمله ، ففي البصرة ابن رائق ، وفي خوزستان البريدي ، وفي
فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري وأصفهان والجيل ركن الدولة بن بويه وابن زيار
يتنازعان عليها ، وفي الموصل وديار بكر وريعة ومصر بنو حمدان ، وفي مصر والشام
الاخشيديون ، وفي المغرب وافر بقية الفاطميون ، وفي الاندلس عبد الرحمن الناصر
الاموي ، وفي بلاد البحرين واليامة القرامطة .

تخيل هذا وهو من طموحه في غرور ، متجاوز الحد ، فحاول دعوى النبوة او انه أظهرها
على اختلاف امهات الروايات في ذلك ، وقد رأيت ان ألم بها لاستجلي ما يتراعى لي
من تحقيق فيها .

قال علي بن الحسن التنوخي عن ابيه عن ابي الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفي :
 « كان المتنبي لما خرج الى كلب واقام فيهم ادعى انه علوي ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم
 عاد يدعي انه علوي الى ان اشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهرًا طوبلا
 واشرف على القتل ، ثم استتيب واطلق (١) وهذه الرواية تصلح بادعائه العلوية ، وان
 حبسه كان طوبلا ، لاقى فيه العذاب واشرف على القتل ولكنها لا نقول بأنه اجتمع
 عليه احد وبنو كلب بارض نخلة وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة اميال منها ، ولعلها نخلة
 بالهاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك ، ويدل على اقامته في هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخلة الا
 مكمام المسيح بين اليهود

قال العكبري في شرح هذا البيت : دار نخلة على ثلاثة أميال من بعلبك وهي

قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن ابيه عن ابي علي بن ابي حامد قال : سمعت خلقًا يجلب يحكون
 - و ابو الطيب المتنبي بها اذ ذاك - انه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها الى أن خرج اليه
 لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وانفره وشرده من كان اجتمع اليه من كلب
 وكلاب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبسًا طوبلا فاعتل وكاد أن يتلف
 حتى سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد تلا على البوادي كلامًا ذكر أنه
 قرآن منزل (١) .

وهذه الرواية نقول انها سمعت بجلب وجاء بها بلفظ (ويحكون) وانها حكيت و ابو
 الطيب في حلب اذ ذاك اي في زمن سيف الدولة وبعد نيف وعشرين عامًا من خروجه
 وهي لا تعرض لدعوى العلوية ، بل نقول إنه اظهر النبوة وتبعه خلق من قبائل شتى
 اجتمعوا عليه وان الذي خرج اليه وحبسه واستتابه هو لؤلؤ الاخشيدى

وقال الثعالبى « وقد بلغ من كبر نفسه وبعد همته ، ان دعا الى بيعته قومًا من
 رائشي نبهه على الخدائنة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ،
 تأدى خبزه الى والى البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه ونقيده (٢) »

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤ (٢) بنية الدهر م ١ ص ٧٩

ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه ، وحكى ابو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت ابا الطيب يقول إنما اقبلت بالمتنبي لقولي :

انا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
انا في امة تدار كهبا الله غريب كصالح في ثمود (١)

وروايتا الثعالي هاتان تدل اولاهما على انه دعا الى بيعته ولم تصرح بان البيعة كانت للنبوة لو للولاية . وعلى انه قبل ان يتم دعوته حبسه الوالي وانه كان هم بالخروج اي انه هم ولم يفعل ، فهو اذاً على هذا لم يخرج فعلاً .

وجاء الثعالي في الثانية بلفظ (ويحكي) مما يدل على توهين امرها وزاد في المنوهمين تعقيبها بما رواه ابن جني عن المتنبي نفسه في سبب تلقيبه بالمتنبي وفوق ما رواه ابن جني تنصل ابي الطيب من دعوى التنبؤ والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن ابيه ان المتنبي كان اذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن اذ ذلك بجلب نذكر له هذا القران وامثاله مما يحكى عنه فينكره ويحجده ويقول انا لست ارضى ان ادعى بهذا (اي بالمتنبي) وانما يدعوني به من يريد الغض مني .

فالمتفق عليه اذاً من هذه الاحاديث انه حاول الخروج على السلطان وانه حبس في ذلك حبساً طويلاً حتى كاد يتلف وانه استتيب واطلق ، وهذه الروايات انما هي عن اقرب المؤرخين اليه عصرها فاطبيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ والثعالي ولد في حياة المتنبي سنة ٣٥٠ والظاهر ان اعتماد من تأخر عنهما في حديث المتنبي كان عليهما ، ويظهر من التدقيق في نص هذه الروايات ان القول بانه هم بالخروج وانه خرج في طلب اماره هو اقرب الى الصواب من انه تنبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى ومن انه اظهر قرآناً لان الرواية التي نقول هذا لم تحل من كلمات تحفظ مثل اسنادها الى الحكاية ومثل ان الرواية كانت بجلب و ابو الطيب اذ ذلك بها بخلاف الرواية الاولى التي ارسلت كأنها حقيقة » وانت تعلم ان ابا الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغيث من كيد حساده وقوة بأسهم وشدهم في الغض منه والحط من شأنه فيقول له :

(١) الينيمة م ١ ص ٨٠

ازل حسد الحساد عني بكبهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا
اولئك الذين اخرجوه من حلب مقاضياً سيف الدولة لانه لم ينتصر له منهم على شدة
حبه له وحنينه اليه بعد فراقه ، ويحكى عن بعضهم انه مات حسدا لابي الطيب وحنقا منه
وفي الصبح المنبي رواية اخرى غير ما تقدم وهي ان المتني خرج بارض سلمية
من اعمال حمص في بني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها
كوتكين وانه امر النجار ان يجعل في رجليه قرمتين من خشب الصفصاف وان المتني
قال في ذلك :

زعيم المقيم بكوتكين بانه من آل هاشم بن عبد مناف
مذ صرت في اياتهم متنبأ صارت قيودهم من الصفصاف
وانه كتب الى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :
ان يكن قبل ان رأيتك أخطأ ت فاني على يدك اتوب
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب
وظاهر هذه الرواية ان الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو ابن علي
الهاشمي ، وان خروجه كان بارض سلمية في بني عدي

رفاع عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمي به المتني ، فلنرجع في التحقيق الى ما يقوله هو
في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيدته التي أرسلها من سجنه الى الوالي (لاثنته
الدفاعية) التي يستحق عليها اجازة كريمة (ليسانس) فهو يقول :

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود
فما لك تقبل زور الكلا م وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبان بمحك اليهود
وكن فارقا بين دعوى اردت ودعوى فعلت بشاؤ بعيد
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
وفي جود كفيك ماجدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

ان أبا الطيب قلب الدفاع في آياته هذه على وجوه :
 الأول : أن يقابل الدعوى بإِنْكارها من أساسها بقوله فما لك تقبل زور الكلام .
 الثاني : أن يردّ شهادة الشهود بجرحه لهم لأنهم سفلة - مقاط ذوو محك كحك اليهود
 بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . وقوله : ولا تسمعن من الكاشحين .
 الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فإن شهادتهم جاءت على
 أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يجبان على معتقد الجرم ما لم يفعله فإذا
 هو فعله استحق العقاب على الفعل ، وأنا لم أفعل فلا عقاب علي . وذلك في قوله : وكن
 فارقاً بين دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فإما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم أبلغ
 الحلم ولم تجب علي الصلاة ، فكيف يحكم علي بالعقاب ، والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم
 أكف فلا عقاب علي . وفي ذلك يقول : تعجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع ، فإني أطلب
 العفو والصفح وهذا آخر ما يطلبه المحكوم عليه وهو قوله : وفي جودك فكيف ما جدت لي
 ويظهر من هذا أن التهمة وجهت إليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة
 عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع معها التكليف ، أو كان حوالها على فرض المبالغة ،
 وفي تفننه في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعي عليه
 به من التنبؤ لم يكن على حد النواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من
 قبائل شتى لكأنت لاجلها متواترة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الانكار مكابرة
 ومماحكة وهراء من القول فكيف يتسنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها
 بل كيف يتسنى لمثل أبي العلاء المعري وهو أقرب الناس الى زمانه وأكثرهم معرفة به
 وأعجاباً أن يشكك فيها ؟

عن الذي سجنه

بقي الكلام في اسم الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة
 من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سمعت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيدي

أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

فمن كلاً أمير ابن بنت الأمير
رمى حلباً بنواحي الخيول
فولى باتباعه الخرشني
أم من كآبائه والجدود
وسمرُ برقن دماً في الصعيد
كشاه أحس بزأر الأسود

قالوا لي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدود يفتخر بهم ، وليس للولاء مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب الى التحقيق . وبدل قوله : رمى حلباً بنواحي الخيول انه قاد الجيوش الى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو اذاً قد ساقها لنصرتها لا لحربها وذلك فيما وراء حلب لقتال الروم بدليل قوله فولى باتباعه الخرشني ، وليس الخرشني الا الدمستقي صاحب عسكر الروم شرقي القسطنطينية وكانت له حرب مع هذه البلاد في سنة ٣١٩ وعمر أبو الطيب يومئذ ست عشرة سنة ، وأرجح أن متولي كبر الكراهية في هذه الحرب بنو حمدان أمراء الموصل لان حفظ ثغور الروم كان مفوضاً اليهم من خليفة بغداد ، ولم يكن الاخشيديون يوماً من الايام مناصرين للحمدانيين .

بعد السجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتني) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزلته ، وكان والي أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدم المتني اليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه ، ونزلته من الشعر والادب » . وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ هـ وعرفه سيف الدولة منذ قدمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ فنكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع هم الفقر بطرق أبواب الامراء والولاة ، فلا يجد عندهم الا خسب العيش ولم ترفعه صلاتهم الى أن يستبدل بتعايه من كوبا ولا برجليه راحلة فيقول يومئذ :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا
بالسوط يوم الرهان أجهدها

زمامها والشسوع مقودها

شراكها كورها ومشفرها

ويقول :

تعجز عنه العرامس الذلل
وفي بلاد عن أختها بدل

ومهمه 'جبتة على قدمي
في سعة الخافقين مضطرب

ويقول في قصيدته الدينارية :

مستمطراً مطرت علي مصائبها
من دارش فغدوت امشي راكبا

اظميني الدنيا فلما جئتها
وحُبيت من خوص الركاب بأسود

فكان من جملة مصائبه ان يفرغ الى علي بن منصور الحاجب من جور زمانه ويمدحه
بمثل هذه القصيدة الغراء فيجيزه عايبها ديناراً واحداً . وكأنه أراد أن يبين عليه بهذا
الدينار ليشتري به بدلا من حذائه الذي قطعه في المشي اليه .

ويقول المتنبي في قلة الجدوى :

لم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرتي ولا تلم
ارى اناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكمام

والظاهر ان أول من اتصل به من الرؤساء هو ابو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي
فان معاذاً يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذار له وله وفرة جميلة . وارجح
ان اتصاله بمعاذ اذا صح أنه كان سنة ٣٢٠ كان بعد خروجه من السجن ، لانه لما كان
في السجن بدعوى الخروج (ولم يعلم انه سجن قبلها او بعدها) كان في الخامسة عشرة او
حواليها . واما ما جاء في حديث معاذ من انه محرق له واغواه بضرب من السحر تعلمه
من اليمن ، وان معاذاً رجع عن الغواية به لما علم أن ما جرى منه كان قد تعلمه من
اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون ؟ فأجابه المتنبي نعم أما سمعت قولي :

امنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيما

فهو ظاهر الوضع لان البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها المتنبي علي بن ابراهيم
التنوخني سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبي دخل اليمن وما السكون وحضرموت
وكندة في البيت الا أسماء محال بالكوفة قال ذلك شراح دهبوانه .

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللاذقية ومنبج وطرابلس وطبريا والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظمأه الى المعالي ولا يبلغ آماله من المال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

إذا لم تجد ما يبتز الفقر فاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتز العمرا
هما خلتان : ثروة أو منية لعلك أن تبقى بوحدة ذكرا

وما زالت هذه حاله حتى نعم بكرم أبي العشار ، فاستيقظت مع الرخاء ونعمة العيش روح كبريائه ، ولما أراد سيف الدولة لصحبته لم يجبه أبو الطيب الا على شرط أن لا ينشده قائماً ، وأن لا يقبل الارض بين يديه كما كانت سنة الشعراء مع الملوك والامراء يومئذ ، وقبل سيف الدولة شرطه حرصاً على الاستئثار بهرائده ، فقلائده الخالدة على الدهر ، وهذه الميزة لم يعطها سيف الدولة لاحد ممن كان في حضرته من الشعراء غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها « وفأوك كالبربع أشجاء طاسمه » اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً ، فقال لابي الطيب أنت قول أشجاء وإنما هو شجاء فقال أبو الطيب له (اسكت ليس هذا من علمك انما هو اسم لافعل) وابن خالويه من أئمة العربية يجيبه أبو الطيب بمثل هذه الغلظة لانه انتصر عليه وهو من الاعتماد بنفسه وبعلمه بالمثل الذي علمت .

ولعل هذا التعاضل من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً للنعادي بينهما الذي انتهى أمره بأن ضربه ابن خالويه بمفتاح من حديد على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدماه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالاسود الدار ش افراشاً نعالها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :

في الشرق والغرب أقوام نجيبهم فبلغاهم وكونا أبلغ الرسل
وخبراهم بأني سيف مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخيول

ولكن أبا الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان بقيده في ذرى سيف الدولة

كما زعم .

شهرته الطائفة في شعره وأثرها في طموحه وكبريائه

يقول صاحب المثل السائر « وأما المتنبي فقد شغلت به اللسان وسهرت في أشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره والغائص في بحره والمقنيس من جمانه ودره » وإنما شهرة أبي الطيب انما تمت وعمت منذ اتصل بسيف الدولة فأكثر هذا حساده بكثرة انعامه عليه وبما رفع من منزلة لديه .

نشطت روح الطموح في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار مسير الشمس وتناقل شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الادب ، واستعان بالفاظه ومعانيه جمهور الكتاب حتى من كان شديد الكرد له عظيم النجدة عليه كالصاحب بن عباد ويقول ابن العميد وقد ماتت أخته (انه ليغنيني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أحمذ ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منهم الا وقد صدر كتابه بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بامالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا شمرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى إخماد ذكره ، وهذان البيتان من قصيدة أنفذها أبو الطيب الى سيف الدولة في رثاء أخته سنة ٣٥٢ و كان اتصال أبي الطيب بابن العميد سنة ٣٥٤ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ، فلا يكون إذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل البلاد حتى استفنح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الاقطار المختلفة ، الا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصعوبة الأسفار .

وجاء في الصبح المنبي عن بعض أئمة الادب أن رجلاً من مدينة السلام كان كما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ما ذكر أسماء الله الحسنى :

أسامياً لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

فرجع الى دار السلام .

فلا عجب إذا لرجل .ملاً ذكره الاسماع وشغل الدنيا كما يقول ابن رشيقي أن
يزداد كبراً وتعاضماً ويقول لسيف الدولة :

انلني اذا أنشدت شعراً فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فاني انا الصائح المحكي والآخر الصدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وان يترفع بعد هذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم يجب دعوة الصاحب
ابن عباد مع ما يذله هذا من الجهود لاستقدمه اليه . فيقول ابو الطيب فيه (ان غلباً
معطاء بالري ، يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل الى ذلك) علم أنه معطاء يسني
الجوائز ، فلم يستلمه ذلك اليه لانه استغنى ، فلم يفعل ما كان يفعله أيام بؤسه لغلبة عزة
النفس والكبرياء عليه ، وقد أثار اعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذ غرضاً برشقه
بسهام الرقبة وبتنبيع عايه سقطاته في شعره وهفواته ، وبنعي عليه سيئاته وهو أعرف
الناس بحسنانه وأكثرهم حفظاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته (١) وأعرض عن
الوزير المهابي وزير الدولة البويهية في بغداد حتى أغرى هذا به حساده من شعراء العراق
كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي والحاتمي وغيرهم ، فذالوا من عرضه وتباروا في هجائه
وتماجنوا وتنادروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله : فرغت من اجابتهم بقولي
في من هم ارفع طبقة في الشعر منهم .

ارى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجسد مرأ به الماء الزلالا

وخشي ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه وزعيم الحضرة والمقيم بمصالح المملكة
في ارتجان ، وهو على أشد ما يكون من الرغبة في لقائه واستقدمه اليه ، أن يعرض

(١) البتيمة

عنه كما عرض عن زميله المهدي في بغداد، فغري بدمه وانتقاده، حتى إذا جاءه أبو الطيب
مرغماً للمهدي، فتح له ابن العميد صدره واجزل ثوابه واحسن وفادته، وصل ما كان
في نفسه عليه من موجدة، وانف أبو الطيب من مدح ابن حنابلة وزير كافور والمقرب
منه، وهو من بيت شريف اهل وزارة ورياسة، ومن الأدب والعلم بموضع جليل.
فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يقبح اثره عنده، وبما كان يذمه على مغامرة في
مديحه له حتى خرج أبو الطيب من مصر خائفاً يتربقب ويتخذ الليل جملاً وهرب.

روح ابي الطيب في الايلاء قوبة؛ لكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي
والاستعلاء وافراطه في هذا الطمع غطى على هذا الايلاء في بعض المواقف، فاستنقاد
واستذل، والا فما معنى قوله في كافور بعد ان ترك سيف الدولة:

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت به انسان عين زمانه وخت سواداً خلفها وماقيا

* * *

فأصبح فوق العالمين برونه وان كان يدينه التكرم نائياً
ويقول فيه:

واخلاق كافور اذا شئت مدحه وان لم تشأ تملي علي فأكتب
فتي يملأ الأفعال رأياً وحكمة وبادرة ابات يرضي وبغضب

يقول هذا وكثيراً مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي اذنه في يد النخاس دامية
وقدره وهو بالفلسين مردود، ويقبل منه ما لم يقبله من سيف الدولة فيخضع للانشاد
بحضرتة فائماً وهو يعلم ان الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وادباً ونسباً وشرفاً
ونوالاً، كالفرق بين الدرّة والبصرة لا يقاس بجد، وما كان كل ذلك الا طمعاً في
الولاية، ولعله طمع في خداع هذا الاسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد
في تملقه اذ يقول له ولم يفتأ يذكر الولاية:

اذالم تنطبي ضيعة او ولاية فجدوك بكسوني وشغلك بسلب

بضاحك في ذا العيد كل حبيبه - حذائي وابكي من احب وانذب
 احن الى اهلي واهوى لقاءهم واني من المشتاق عنقاء مغرب
 فان لم يكن الا ابو المسك ادهم فانك احلى في فؤاديه واعذب
 وليس هذا ملق كاذب ان يجعل الاسود الذي مشفره نصفه احلى في فؤاده واعذب
 من اهله الذين يحن اليهم هذا الحنين ويهوى لقاءهم كما ترى .

أحمد رضا

عضو المجمع العلمي العربي

